

السلام عليك يا مريم

وعلى كاتيا وجوزي وأليز...

الخضر حمادي









Rikaz for Publishing and Distribution ركاز للنشر والتوزيع
Jordan-Irbid | الأردن – اربد
E-MAIL: rikazpublisher@gmail.com
Mobile: +962797984602
@rikazpublisher

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:

ISBN 978-9923-44-387-3 ردمك

السلام عليك يا مريم

حمادي، الخضر، دار ركاز للنشر والتوزيع، 2024
الواصفات: حوار ثقافات // فلسفة أخلاق

الطبعة الأولى: 2024

للتواصل مع الكاتب:
Hammadi@manaracademy.org

السلام عليك يا مريم

وعلى كاتيا وجوزي وألبير

رسالة

الخضر حمادي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّٰهُمَّ صل على سيدنا آدم أبينا

وعلى سيدنا نوح وعلى سيدنا إبراهيم

وعلى سيدنا موسى وعلى سيدنا عيسى

وعلى سيدنا محمد

وسائر الأنبياء والمرسلين وسلم تسليما كثيرا

والسلام على سائر المؤمنات والمؤمنين إلى يوم الدين

لم يتيسر نشرُ الرسالة وقت كتابتها، وإن لكل زمن بركته ولكل عمل وقته، وما من شيء إلا بإذن الله ومشيئته وكل شيء عنده بمقدار.

الرسالة اليوم غزة، وهي المبتدأ والخبر.

في ظلها وتحت ظلال زيتونها وسيوفها، هدمها وأكفانها.. تحت ظلال معانيها التي تنحتها نحتا، تفهم هذه الرسالة فهما صحيحا، وتقرأ قراءة عميقة..

غزة تنحت المعاني في القلوب نحت الخبير الصادق المصدق المؤيد بالله. ودعني من الخطب الركيكة لفظا الباردة معنى الصادّة عن طريق الحق.

السلام عليك يا مريم .

السلام عليك يا غزة.

الخضر حمادي

7 يناير 2024

فهرس الرسالة

أستحضر في هذه اللحظات من أخاطب بهذه الرسالة:

• كاتيا (Catia) امرأة من عائلتي، يشع من قلبها صفاء، وتَتَحَشْرَجُ في صدرها العباراتُ كلّما تحدّثَت بما له حمولة عاطفية، تَسْبِق حروفَها الدموعُ، امرأة أم لأربعة أبطال، وابنة لبرتغاليين لا تخطئ العين أنهما ربياها تربية حسنة وقدّما للعالم امرأة مكافحة منظمة غاية التنظيم، قلبُها منيرٌ وأثرُها كبير، كريمة عظيمة .. أذكر زيارتي لبيتها الجميل شهر أكتوبر الماضي، أذكر ما لقيتُه وزوجتي من حفاوة واستقبال، لقد سعدتُ بإبداعها وأثرها بمختلف مرافق البيت، قوانين السعادة والنظام معلقة على الجدران، وأثر التطبيق الجيد

والتعاون والتفاهم يسري في قلوب الجميع، الابتسامات تعلو وجوهَهم وأفئدتُهم تَتّقدُ بحوافز قويةٍ للنجاح والاستمرار..

•جوزي (Josey) الشاب البلجيكي، رهيف القلب، صادق اللهجة، جمعني به موقف حكى لي فيه عن بعض همومه، وشاركني بعض ما يحس به، لقد كان غاية في التواضع، عميق التساؤل فيما يتعلق بوجود الله، نشأ كاثوليكيا، ليس من محترفي الحجاج والجدل، يريد أن يحس بالخير في قلبه ويطمئن، عبّر عن فرحه بتواصلنا الذي لم ينقطع، وهنأني بأداء المنتخب المغربي في كأس العالم، وفرح وسعدت كثيرا، عندما أخبرني أنه يجد في حديثه إلي سلاما...

•خوسيه (José) من جاليسيا شمال غرب إسبانيا، التقيته بمدينة ميليدي نواحي "سانتياغو دي كومبوستيلا"، مدينة الحج.. رجل سمعت عنه قبل أن ألقاه، رجل أعمال ذو سعة في الرزق، متواضع تواضعا كبيرا، لا يتميز عن البسطاء ولا يرتفع ويترفع عليهم، كان مما أثارني كثيرا علاقته الأبوية وحنانه الكبير على أطفال من المسلمين، آواهم واحتضنهم وبذل لهم من الخير زمن اضطراب عائلي ..

•موظفة بإحدى الإدارات شرق إسبانيا، شابة في عقدها الثالث، صارمة في عملها كما يبدو من قسمات وجهها، دنوت منها لأستفسر عن أمر،

فصدتني بعبارة: لحظة من فضلك. ثم ذهبت ولم تعد..

راقبتها تطوف على الإسبان جميعا تسألهم عن حاجتهم وترشدهم، وبقيت في مكاني.. رأتني مرارا ولم تسأل، وقررت ألا أسأل، إلى أن تيسرت حاجتي مع موظف آخر، تحمل عبء أن يقوم من مكتبه ويشرح لي زيادة على قضاء حاجتي..

أخاطبه أيضا بهذه الرسالة..

أخاطب بها موظفين آخرين غاية في التواضع، وقضاء الحاجة، وما أكثر ما وجدت في أوروبا ممن يسارِع لقضاء الحاجة ويُحسِن في ذلك إحسانا كبيرا.

السلام عليك أخي ألبير (Albert) .

أذكر حديثي مع كاتيا (Catia) أول ما التقينا عن أصلنا ونسبتنا لآدم وأُخُوّتنا لِأبٍ واحد وأمٍّ واحدة، ثم صرفنا عن كل ذلك الحديث المهم صوارفُ الانشغال ببقية الضيوف، وظل الموضوع في بالي يلِحُّ عليّ أن أُنهِيَه.

أذكر ما هجم على قلبي من مشاعر الأسى على شباب ضحايا حداثة قطعت صلتها بالله وأعلنت موته، تُعبِّرُ الأرواحُ عن حاجتها لله ورحمته وعونه ومدده، تعكس هذه الحاجةَ عباراتُ التساؤل والحيرة ..

وأذكر اطمئناني على بعض بُنوة عمِّي، وسعادتي بما وصلهم به الله عن طريق خوسي الإسباني المتواضع،

لقيتُه لا تكادُ البسمة تفارق وجهه، يطمئن إليه الابنُ الشاب ويتداعى ويمازحه بلا حواجز..

أذكر ما شعرت به من "استثناء" إذ بقيت ضائعا في موقف لا أعرف ما أصنع، وموظفة عملها أن تدُلنّي، تتجاهل وجودي ..

وأذكر ما شعرت به من بهجة وفرح من معاملة موظف بنكي، وإطار آخر شرق إسبانيا، السيد ألبير (Albert) الشاب الخلوق، شكرته على خدمته قائلا بإسبانيتي المبتدئة: شكرا لك سيدي، فأجابني:

بل حضرتك السيد..

لا شك أن جميع هذه اللقاءات لم تقع اعتباطا، نحن رسائلُ لبعضنا، وإن الكونَ كُلّه وجميعَ ما فيه من مخلوقات يخاطبنا بإشارات في كل لحظة، علِمها من عَلِمها، وغفل عنها من غفل. ولأن زمن لقاءاتي لم يكن طويلا ولا كنت خلاله مستقرا، فقد حرصت أن

أستأنف الكلام في الموضوع الذي بدأته مع كاتيا (Catia)، وأن أتفاعل مع بعض ما سمعته من جوزي (Josey)، وأعبر عما في خاطري وفي قلبي من أثر هذه المواقف التي ذكرتها سابقا.

لم أجد مناسبة أعظم ولا أهم من رأس السنة الميلادية، لأخاطب كل هؤلاء وغيرهم ممن يقف على رسالتي هذه، في ظلال الاحتفاء بامرأة عظيمة هي عندنا سيدة نساء العالمين..

مريم عليها السلام.

لأجل ذلك أكتب اليوم ..

وحري بي أن أشير أني بدأتُ الكتابةَ بعفوية وتداعٍ، في وقت فاضل من ليلة الجمعة الثلاثين من دجنبر من عام 2022 على أبواب العام الميلادي الجديد.

أكتب كل حرف من هذه الرسالة في المسجد، تُحيط بالأرجاء آياتُ القرآن الكريم، وتتنزل السكينة..

لَعَلّ أن تحمل رسالتي في طياتها سلاما وسكينة، إلا أن يحبسَ ذلك مني حابسُ ذنب ومعصية.

لن أسلك في رسالتي مسلك الحجاج، ولن أنهج فيها منهج "الإكراه"، هي رسالة رحمة ومحبة، إلى جميع من تجمعني بهم أخوة الإنسانية وإن فرقنا الاعتقاد، رسالة إلى كاتيا (Catia) البرتغالية الفرنسية، وجوزي (Josey) الشاب الرائع صديقي البلجيكي، وخوسي الإسباني (José)، وألبير (Albert)..

إلى صديقي بائع الخراف الإسباني الذي أذكر أن اسمه كان مطابقا لاسم أحد "القديسين" في الديانة المسيحية (San Esteban) وأذكر قولي له ما علمني معلم حكيم:"لكلٍّ من اسمه نصيب"، قلت له مازحا: ينبغي أن تكون صالحا لتستحِقّ اسمك. فكان للعبارة على روحه الشفافة أثرٌ قوي، وكأنما انتبه من

غفلة، انحنى للكلمة انحناءة تحمل كثيرا من المعاني..

إنني أريد أن ننحني للأرواح ندعها تناجي بعضها بما وراء حجب الاستشهادات والتأويلات والنقول.

رسالتي رسالة تنحني لما في قلوبكم من الخير لا تخاطبكم من علياء ادعاء الحق المطلق، أخاطبكم بما في القلب، وفي قلبي من أثر معاملتكم كثير من الإعجاب والتعجب، ليس أقل ما يستقر بقلبي وأعجب له، مشهد الحُجّاج الذين لقيتُهم بجاليسيا يمشون على أقدامهم من كل الفئات العمرية وكل المناطق الجغرافية، يحجون إلى "سانتياغو دي كومبوستيلا" في مشهد بديع من"التضحية" والصبر على طول الطريق ومشقته، إنها من العبادات التي لا يقوى عليها الإنسان إلا بروحه، قال لي مُعلِّمي: "ما عجز بدنٌ عما قدرت عليه النية".

خلق الله أبانا آدم عليه السلام من طينة الأرض بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، لقد أمرهم بأن ينحنوا، لأن الانحناء عربون تواضع، والتواضع عربون تعظيم للعظيم سبحانه، ولذلك نذكر بعضنا بواجب الانحناء ..

الانحناء لله، الانحناء للحق، الانحناء للرحمة، الانحناء للمعنى..

حتى تستقر في قلوبنا الرحمة وتسكن الحكمة، ويستبد بنا الحق فلا نحيد عنه.

سجد جميع الملائكة، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

سجدوا لمعرفتهم الله تعالى، طاعة له مطلقة من كل اعتراض.

حاشاهم..

سجدوا إلا واحدا..

لم ينحنِ..

إن أصلي النار، وهي قوية..

فكيف أسجد لمن خلقته من طين؟

كيف أسجد لمن أعاين الآن جسده الضعيف، وأدرك "بقدرتي" مداخل هزمه والتغلب عليه؟

إن هذه اللحظة جديرة بالتأمل..

لقد كان إبليس الذي رفض الانحناء لخلق الله، الانحناء لعظمة الله..

مع الملائكة..

لقد كان تفسيره لسبب الرفض مؤسسا على منطق كثيرا ما نعتمده -إن لم أقل أنه هو المعتمد أصلا- ميزان العقل والقوة، ميزان المادة..

كيف أنصت اليوم لمسلم، وليس بين دول المسلمين نموذج يحتذى؟

كيف أنحني لأي معنى يأتيني ممن "أعاين جسده الضعيف" وأفوقه بكثير من الممتلكات، وأتجاوزه بخطوات وخطوات ..

جزى الله خيرا معلمي الذي قال لي يوما: "إن العبد إذا نظر إلى الأشياء -الأشياء كلها وليس الإنسان فقط- بعين الكمال استمد منها حتى يصبح كاملا، وإذا نظر إليها بعين النقص، استمدت منه حتى يصير ناقصا".

كيف أنحني لما وراء العقل؟ وليس عندي منظورا محسوسا؟

إن للعقل حدودا لا تخرقها إلا الروح، لأن دخولنا هذا العالم في الأساس، دخول روحي، إننا نفخة علوية، أما البنية فطينية أرضية..

فلندع للروح مجالا للسّبح، ولتُشْرَعِ الأشرِعة.

أصلنا علوي، خلقنا الله تبارك وتعالى بيديه، ونفخ فينا من روحه، لقد خُلقنا في الجنةِ وطننا، وُلدنا جميعا في عالم المعنى عارفين اللهَ خالقَنا تمام المعرفة.

أصلنا:

-الجنة موطنا

-نفخة ربانية علوية روحا

يوم خلق الله أبانا آدم بيديه، أخذَ من صلبه جميع ذريته إلى يوم الدين، كنّا جميعا حاضرين يومها..

نعم لقد كنا هناك، أرواحا ومعنى، أما المبنى فلاحق..

كنا هناك، وتعرّفَ إلينا ربُنا سبحانه، قال لنا:

ألست بربكم؟

قلنا جميعا بلا تردد: بلى.

أقررنا وشهدنا على ربوبيته وألوهيته سبحانه، وخاطبناه بلا حجاب، وأخذ علينا العهدَ والميثاق:

- لا تعبدوا الشيطان.

لقد علّمَنا من خلال موقف السجود، أن الشيطان عدوٌّ لنا، هذا الذي رفض أن يسجد لأبينا، ثم وسوس له

ولأمنا حواء فأخرجهما من موطننا الأصلي الجنة، بعد أن أكلا مما نهى الله عنه..

أمرنا أن نعبده وحده سبحانه، لا نشرك به أحدا من خلقه خوفا وطمعا، ولا شيئا من مخلوقاته ضلالا، ولا نتبع هوى الأنفس الضالة اعتقادا أو فكرا أو سلوكا..

ورضينا أن نحفظ فينا هذه الأبعاد الثلاثة من الزيغ عن العهد.

وأودع فينا سبحانه "الفطرة" هذه الهِبة الربانية، هذه البصمة العلوية المستقرة في أعماق أعماقنا، تحمل في شيفراتها معايير الحق والباطل، والخير والشر، والجميل والقبيح..

إنها أعظم مشترك إنساني بيننا جميعا نحن البشر، نطل عليها ونقترب أو نوفق فنغرف، بقدر ما نمسح من غبار الغفلة الذي تراكم على القلوب، وبقدر ما

نصحو من "سُكْر" المُلهيات وتراكم الماديات وعفن الاستغناء بما راكمنا من المكتسبات..

لقد أصبحت الصورة واضحة:

- موطننا الجنة.. ومسيرتنا في الدنيا مسيرة عودة إلى وطننا الأم
- روحنا نفخة ربانية علوية.. نغذي روحنا بالارتقاء بها بالعبادة والذكر والصلاة ..
- العهد: لا تعبدوا الشيطان .. لا نتبعه ولا نطيعه فيخرجنا من مسار العودة إلى الوطن الأصلي ويضلنا، كما أخرج أبوينا من الجنة..
- تلمسوا الفطرة وحافظوا عليها ..

في بعض حديثي إلى كاتيا، ذكرتُ جبريل عليه السلام، قالت: هل لديكم أنتم أيضا جبريل؟

السلام سلاما كثيرا على جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت وعلى الكتبة والحفظة وجميع ملائكة الله، الذين لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

إن بين بني آدم مشتركات كثيرة، لأنهم إخوة ..

وفي ديننا مشتركات كثيرة لأن أصله واحد ..

ملائكة الله مخلوقات نورانية لا تعصي الله أبدا، وتفعل ما تؤمَر، منهم جبرائيل روح الله، ومنهم ميكائيل، ومنهم إسرافيل..

جَبر وميك، وسراف بمعنى عبد وإيل: الله. فكلهم بمعنى: عبد الله. تحققوا بحقيقة العبودية لله تبارك

وتعالى، غذاؤهم ذكره وطاعته، لا هوى لهم ولا ميل عن الحق، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

نزل جبرائيل عليه السلام بالوحي على أنبياء الله، فهو أمين الوحي، المرسل من عند ربه سبحانه، قالت فيه اليهود أنه العدو الذي يأتي بالعذاب، وقال الله في القرآن:{قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ} (البقرة:97)

لنعد إلى مشهد الانحناء السابق..

لقد خلق الله تعالى أبانا آدم بيديه ونفخ فيه من روحه وأمر ملائكته أن تسجد له..

لكن أحداثا أخرى وقعت قبل هذه اللحظة.

أخبر الله تعالى ملائكته، أنه جاعل في الأرض "خليفة" ، استفسرت الملائكة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (البقرة: 30).

إن هذا الاستفسار الملائكي ليس على وجه الاعتراض، ولا الحسد ورفض "الانحناء" كما فعل إبليس، بل هو سؤال استعلام عن الحكمة في ذلك..

إن كان المراد بالخليفة أن يعبدك ويصلي لك، فإننا يا ربنا نقدسك ونسبحك ونصلي لك، ولا يصدر منا شيء من الإفساد وسفك الدماء..

قال الله تبارك وتعالى: {إني أعلم ما لا تعلمون}.

قال بعض علمائنا: كان الجن في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة ، فأفسدوا في الأرض ، وسفكوا الدماء ، فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم ، حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، فقال الله للملائكة :{إني جاعل في الأرض خليفة}.

لقد كان للملائكة تمثلٌ سابقٌ عن هذا الذي سيسْكُن الأرض، عاينوا إفسادَ الجن وسفكَه الدماء، عاينوا الخراب بدل العمران، والطغيان بدل الرحمة، والتنافر بدل التعاون..

عاينوا غفلة المخلوق عن مراقبة الخالق وذكره وتسبيحه وعبادته وتمجيده، وهم إنما يحيون بتلك

المعاني ويتقوتون بها.. لهذا تساءلوا.. خشية أن يكون هذا المخلوق على شاكلة سابقه في الإفساد والطغيان والتكبر..

وقال عالم آخر: إنما تكلم الملائكة ببعض ما أعلمهم الله أنه كائن من ابن آدم.. لقد علموا بتعليم الله إياهم ما سيكون من هذا المخلوق، من إفساد وسفك للدماء فتساءلوا ..

قال عالم آخر: علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكره إلى الله من سفك الدماء والفساد في الأرض..

{إني أعلم ما لا تعلمون..}

كان هذا قول الله تبارك وتعالى لملائكته، ثم أعقب ذلك بامتحان. بل أعقبه بالامتحان:

{وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}

(البقرة: 31-32).

لقد علّمَ الله آدم الأسماء كلها.

علّمَه أسماء كل شيء.

علّمه اللهُ، العليم الحكيم، علّمه كل شيء..

تبدو الآن صفاتُ هذا الخليفة واضحة جلية:

- لا يفسد في الأرض، أي أنه يعمرها ويصلحها..

–لا يسفك الدماء، أي أنه خلق يعيش بالسلام والرحمة والتعاون..

–يعْلمُ الأشياء.. ليس جاهلا يمشي بغير هدى

اكتملت الصورة:

- موطننا الجنة.. ومسيرتنا في الدنيا مسيرة عودة إلى وطننا الأم
- روحنا نفخة ربانية علوية.. نغذي روحنا بالارتقاء بها بالعبادة والذكر والصلاة ..
- العهد: لا تعبدوا الشيطان .. لا نتبعه ولا نطيعه فيخرجنا من مسار العودة إلى الوطن الأصلي ويضلنا، كما أخرج أبوينا من الجنة..
- تلمسوا الفطرة وحافظوا عليها ..

- لا تفسدوا في الأرض، اعمروها وأصلحوها..

–لا تسفكوا الدماء، عيشوا بالسلام والرحمة والتعاون..

–تعلموا جميع ما ينفعكم..

هذه منارات ليهتدي بها هذا "الخليفة" في الأرض.

جميع ما يُحقِّقُ هذه المقاصد مطلوب، وكل ما أبعد عنها فلا تقربوه..

إنها معايير كُلّية وموازين لجميع الأعمال..

يختار الله تبارك وتعالى من خلقه ويصطفي، رجالا تحققوا بحقيقة هذه المنارات، شروطِ خلافة الله، وعلموا من علمِ الله، نذروا حياتهم لعبادته وتسبيحه وتقديسه..

وآخرون، دونهم عَمُوا عن العهد، وصَمُّوا عن سماع نداء الفطرة المُنْدَرِسِ تحت ركام الغفلات وظلام السيئات..

وكلا الفريقين درجات ودركات ..

يتفاوت المطيعون في درجاتهم، يتفاوت إيمانهم وعلمهم وعملهم الصالح. وتتفاوت دركات من نسوا العهد واستحلوا الفساد..

وكلما عمّ الظلامُ واحتاج الخلق إلى نور، اصطفى الله من خلقه بشرا، يبعثهم للناس رسلا مبشرين ومنذرين ، معلمين ومربين، يُذَكِّرون الخلق بالمعالم والمنارات، ويُحيُون في قلوبهم الميثاق، ويمسحون الغبار عن الفطرة..

وكما اصطفى الله أبانا آدم، اصطفى نوحا وبعثه إلى قومه، واصطفى إبراهيم ..

عليهم السلام جميعا وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

في قرآننا:

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.(آل عمران:33).

اصطفى الله أبانا آدم، خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وكان في خلقه الآياتُ والدروس،

وفي توبته ورجوعه آيات، وفي نزوله الأرض آيات، وما تزال حياتنا نحن بني آدم حبلى بالآيات والعِبر..

واصطفى نوحا وجعل له السفينة آية في النجاة كما هي آية في عذاب الغافلين عن العهد، وجعله آية في الصبر، وآية في الثبات، وجعل لنا فيه عبرةَ ضلالِ الولدِ عن أبيه، وتِيهِ الفرعِ عن أصلِه..

واصطفى آل إبراهيم

و اصطفى آل عمران على العالمين..

اصطفى .. اختار

تجب هنا وقفة وينبغي تأمل:

إذا كان وجودنا في هذه الأرض امتحانا، وكان من خلق الله مصطفين..

فأين اسمي من هؤلاء؟

ما اسمي في سابق علم الله؟

هل أنا ممن حافظ على العهد، فمصيرُه بلوغُ أصله ورجوعُه إلى موطنه سالما معافى؟

أم أني ممن ضل الطريق، وغفل عن القصد، وتلهى بما ألهاه به الشيطان، فنسي؟..

ما أحنّ ربنا علينا، وما أرحمه بنا.. سبحانه الرحمن الرحيم ..

جعل لنا في بعض خلقه الذين اصطفاهم آيات.

ومن عباده المصطفين، عمران

وامرأة عمران ..

ومن عباده المصطفين مريم عليها السلام..

السلام على مريم سيدة نساء العالمين ..

السلام على الصديقة ..

السلام على آية الله العظمى، المحبوبةِ ، العابدةِ ..

السلام عليك يا مريمُ سلاما كثيرا طيبا مباركا فيه..

وعلى عباد الله الصالحين جميعا..

{إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ. ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (آل عمران: 33-35).

يا الله .. ما أعظمها من مناجاة من امرأة مؤمنة..

إنها امرأة تعي مهمتها في الدنيا جيدا، تحافظ على العهد، وتجسد علامات الخليفة.

ربِّ.. إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني..



في زمن تفعل الحداثةُ وأدواتها الملهيةُ بالأبناء الأفاعيل، جدير بنا أن ننتبه إلى هذه الوسيلة العظيمة في التربية.. الدعاء.

إن أول أمر كل أسرة مؤمنة تعرف وظيفتها في الدنيا، وتستحضر العهد، أن تتأسس على معاني الإيمان بالله والتوكل عليه، فتعم هذه المعاني جميع ما يتصل بها من أحوال، حتى اللقاء الجنسي بين الزوجين يخرج من الممارسة الغريزية إلى العبادة الربانية، يكون التقاءً على ذكر الله، بنِيّةِ عبادة الله.

امرأة عمرانَ تنذرُ لله ما في بطنِها..

خادماً لرسالة الله ..

مُعلما..

مربيا..

مذكرا خلقَ الله بالعهد..

فكان أن جعلها الله آية للعالمين، وجعل من ذريتها آية للعالمين، عليها السلام وعلى سيدنا عيسى الصلاة والسلام سلاما كثيرا ..

نقف في عناوين مع سيدتنا مريم وقصتها وقفة تأمل وتعلم، وننحني لما تعلمنا..

في كل زمان، تستقر بالعقول أفهامُ وتأويلات، ليست من الحقيقة التي علمها الله أبانا آدم يوم علمه الأشياء كلها على الوجه الصحيح..

إن قضيةَ المرأة مثالٌ صارخ لهذا الذي قد يستقر عميقا في التصور وتترجمه الأفعال، وهو لا يعدو أن يكون جِنايَة ..

وضعت امرأةُ عِمْران، أنثى..

ناجت ربّها:

{.. رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (آل عمران: 36)

لقد أرادتها لمهامّ عظيمة، وكانت تتصور أن الألْيَقَ بهذه المهامِّ ذَكَر، والأقدرَ عليها، والأوفى بحقِّها.. والله أعلم بما وضعت .

الله أعلم حيث يجعل رسالاته، الله أعلم بمن يصطفي..

إن الذكرَ والأنثى ليسا سيان، وإن من العبثِ والتيهِ هذا التطاحنُ لأجل التسوية بينهما.

ليس الذكر كالأنثى، وليس الذكر بأفضل من الأنثى، ولا الأنثى بأفضل من الذكر .. خُلِقا ليتكاملا ويَخُوضا معا مُتعاوِنَين مُتكامِلين تحدِّياتِ الحفاظِ على العهد، ولِيَسيرا جنبا إلى جنب مَسيرة العودة إلى الوطن..

ليس الذكر كالأنثى ..

لكن هذا لم يمنع أن تكون مريمُ ابنة عمران آية من آيات الله الكبرى، آية للعالمين في كل زمان، آيةً علّمَناها ربُّنا في سورة في القرآن سمّاها باسمها، ذكرَ

فيها أمّها وما فعلت، وحضرَ فيها الأبُ الذّكَرُ باسمه فقط، وَنِسْبَةِ الأسرة إليه..

لقد علمنا الله تبارك وتعالى باصطفائه مريم، أن نطرح من عقولنا هذا التفكيرَ الذُّكوريّ الذي يجعل الذكرَ محورا حوله يدور كل شيء، يُعطيه الأحقّيةَ في كل شيء، ويتصور الأنثى نعمةً مخلوقة لإسعاده، وخدمته..

الله أعلم بما وضعَت..

إن هذه الإشارة تذكرنا بما لم ننتبه إليه سابقا..

لقد خلق الله أُمّنا حواء بالجنة أيضا..

ونفخ فيها من روحه أيضا..

وإن اختلفت طريقة الخلق بينهما فللإقرار الاختلاف بينهما، {وليس الذكر كالأنثى}، وإلاّ فكِلاهما خُلقا بالجنة، وكلاهما هبط إلى الأرض، وكلاهما كُلّف بالعهد، وكلاهما حُمّل مسؤولية الثبات، والعودة سالما إلى الوطن..

وإن كان من الرجال رُسُل، فمن النساء صديقات وصالحات قانتات عابدات، كانت مريمُ صِدِّيقةً {وأمه صديقة}.

بل هي سيدة نساء العالمين.

في سياق مناجاتها ربّها، مستحضرة نَذْرَها لله ما كان في بطنها، أن يكون مُحرّرًا لعبادة الله وخدمة رسالته، تذكُر المرأة الصالحةُ اسمَ ابنتِها:

{وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ} (آل عمران: 36)

مَرْيَمُ، أو مِريام، أو ماريّا في اللاتينية، قيل أنه آرامي ويعني: العابدة، المتعبدة التي تخدم في بيوت الله، وقيل أنه في السريانية من مَرِي أي "المحبوبة" أو من "مُرْ" أي "الحُب"، و قيل أنه يعني المرتفعة..

ولنلاحظ معاني: الارتفاع والارتقاء، المحبوبية، العبادة ..

إن هذا ليس اسما فقط..

هذا مشروع حياة..

ولعلّ هذا مما يؤكد ما ذكرته سابقا من حكمة سمعتها من معلِّمي: لكل من اسمه نصيب..

إنها رسالة نبيهة للآباء والأمهات أن يحرصوا على هذا العنوان الكبير الذي يرسمون به مسار أبنائهم.

ليس الاسم رقما..

إنه صفةٌ مُلهمة..

إنه مشروع حياة..

إنه عنوان خطة، وحافز نجاح..

قالت المؤمنةُ أُمُّ مريم عليها السلام، تُواصِل مناجاتها، لا يقنعُ الموقن بإجابة الله بعطاء، أعظم أُعطياته أن ناجى ربه، وتلك علامة قبول ودليل رضى، ومقدمة استجابة.

قالت: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ} (آل عمران:36)

أرأيتم وضوح العهد عند والدة مريم عليها السلام: إن الشيطان رجيمٌ، وإن مهمته الأساسية أن يصرف ذُرِّية آدم عن العهد، ويسحَبها إلى دُروب الغِواية ..

وإن المؤمن العارف بالله، ليعرف أول ما يعرف، ألا نجاة إلا بالله، ولا هروب إلا إلى الله، ولا مُعيذَ مِن مَكر إبليس ومَكْر كل ذي مكر سوى الله، تعالى الله.

إن مما يعلمنا الله بحكاية دعاء هذه الصالحة أن الدعاء حصن وبركة..

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا"، ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ}..

إن المقامات الرفيعة، تُنال بدعاء الوالدين، دُعاءُ الأمِّ الصّادقُ هذا، استجابه الله تبارك وتعالى، فكان أن جعل مريم عليها السلام وابنها آية للعالمين.

إن مما يهمِس به هذا المشهد في آذانِنا، أن نحرِص على دعاء الخير من والدينا، أن نحرص على برِّهم، وتقديرهم، وخدمتهم..

هذه الأنانية التي يعيشُها اليوم كثيرون، قطعت الأواصِر، وأعطبت الأرواح، فإذا بها حاسرة بدل أن تكون إلى أصلها سائرة، تائهة مريضة..

المعافاةُ برُّ الوالدين..

الشفاء خدمتهما..

الفلاحُ المبادرة لقضاء حاجاتهما..

إن مما يصرخ به هذا المشهد في وجوهنا، إن كنا آباء وأمهات، أن أساس التربية الدعاء والتوجه إلى الله أن يحصن الأبناء من كل شر ويحفظهم من كل مكروه، أن يكونوا موضوع صلواتنا ودعواتنا وابتهالاتنا، ومع ذلك اتخاذ جميع وسائل التربية.

بعد هذا التضرع، قالَ السّميعُ العليمُ: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا} (آل عمران: 37).

للبيئة أمر حاسمٌ في التربية، يتأثر الطفلُ بوالديه، يتأثر بأصدقائه ورفقته، يتأثر بكل ما يتصل به بدرجة اتصاله وتأثره به.

يتأثر كما تتأثر الشجرة بالتُّربة التي غُرست فيها، ونوعِ العناية التي حصلت عليها، والماءِ الذي سُقِيت به.

هذا الطفلُ الشّجرة ، لو نُقِل إلى تربة جديدة، وحصلَ على عِناية مُخالفة للعناية الأولى، لتغير حتما، ولكان ثمرهُ أجودَ وعطاؤه أفيَد.

البيئة التي احتضنت مريم عليها السلام:

أسرة مؤمنة عارفة بالله، حافظة للعهد والفطرة..

ومُعلِّم خبير، مرب عالم بعلم الله، هو أحد أنبياء الله، زكرياء عليه السلام.

لمّا ذهبتْ بها أُمُّها إلى من لهم الأمر على بَيتِ المقدسِ، تخاصموا أيُّهم يَكفلها، واقتَرعوا عليها، فَوقعتْ القُرعةُ لزكرياء نبيِّ الله عليه السّلامُ ..

قالَ تعالى: {وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا} ..

تَعلّمتْ في صِغَرِها من نبيِّ اللهِ العلمَ النّافع، والعمل الصّالح، ونَشَأتْ في محرابِ بيتِ المَقدسِ نشأةً مباركةً وأنبتَها ربُّها نباتاً حسناً فكانتْ من القانتينَ، المداومينَ على طاعتِه بخشيةٍ وخُشوعٍ ..

وكانَ {كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا} (آل عمران:37)

قالَ العلماء، كان يجد عندَها فاكهةَ الصّيفِ في الشّتاءِ، وفاكهةَ الشّتاءِ في الصّيفِ..

إن القُدرة التي خلقت أبانا من طين، تظهرُ لنا من حين لآخر في عالم الحكمة، عالم الأخذ بالأسباب، لِتَشُدّ انتباهَنا إلى القديرِ وتَسْحبَنا من الأسباب إلى

المسبِّب، وإن ظهرت لمريم عليها السلام آيةً واضحة جلية، فإنها تأتينا خَفِيّةً..

تحفُّنا عنايةُ الله وألطافُه، ويسوقُ لنا من حيث لا ندري بركاتِه وأرزاقَه، سبحانه جل وعلا، ويرسل علينا حفظة...

انظروا إلى بديع صنع الله في خلقه، وجميل معرفتهم به، وقيامهم بعهده، وخلافتهم له.. {قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. (آل عمران: 37).

هذا الإقرار بالأمر لله من قبل ومن بعد ثمرة عبودية لله خالصة ومعرفة به تامة.

على قدرِ شفافية روح المؤمن، ودوام اتصاله بربه عز وجل، يصير ملائكِيّ الطّبع، وربما عاين الملائكةَ وتحدث إليها.، من صحابة رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، من كان يرى الملائكةَ ويسمعها، كان عمران بن حصين منهم..

مريم عليها السلام، تخاطبها الملائكة خطاب القريب الملازم، الذي له بالمخاطَب عهد ودوام صِلة {إذ قالت الملائكة يا مريمُ إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين }(آل عمران:45)

كانت مريم عليها السلام آية في الإحصان والعفاف، لمّا دخلَ عليها جبريلُ عليه السّلامُ وهو في صُورةٍ

جَميلة، وهيئة حسنة {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا}، خافتْ فاعتصمتْ بربِّها، واستعاذتْ منه:

{قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَانِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا} (مريم 16-18)

لقد كانت بشهادة الله محصنة عفيفة طاهرة، قال عزّ وجلّ: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} (التحريم:12)

هذه الشهادة جديرة بالاعتبار في زمن العُري..

إن دينَنا دينُ حياء وعهدَنا عهدُ سِتْر.

قوبلت خطيئةُ أبينا آدم عليه السلام، أوّلَ ما قوبلت بكشف عورته وعورة أمنا حواء عليهما السلام.. وإن لنا، تأملا في هذه الآية أن نربط ثورةَ العري بكثرة المعاصي..

ليس في العُري ما يتأسس على منطق سليم، سوى هوى النفس أن تفعل ما تشاء، غير مقيدة بوازِع ولا

مرتبطة بعهد، ولمن شاء أن يفعل ما شاء..

لا إكراه.

لكن كثيرا من مآسي ودركاتِ بني آدم وبُعدِه عن العهدِ والميثاق وانطماسِ الفطرة فيه، سببُها المباشر قَنْبَلةُ شعورِه ومعانيه، بقنابل العُري والانفضاح والخلاعة، وهي أشد على الروح من قنابل الدمار.

إن الله يبشرك، أيتها الطاهرة العفيفة المحصنة، وللمحصنات بشائر العاجل والآجل، يُبَشِّرُك بكلمة منه، بغلام زكي، بآية للعالمين مباركة..

ومن أعظم الآيات الربانية ما يخرقُ حدودَ العقل، ذكرى لنا بمحدوديته، ويتحدى العادةَ ذكرى لنا أنها ليست الأصل، ويخرجُ عن الحكمة وسنة الأسباب، ذكرى لنا بعظمة الله وقدرته المطلقة.

أخبرتها الملائكة وبَشَّرَها روحُ الله جبريل.

وحين حملت به فاضت مشاعرُها أسًى:

{قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا} (مريم:23)

قال عالم: ذهبَتْ هاربةً.

وقال آخر: إنها عرفت أنها ستُمتحن وتُبتلى بهذا المولود الذي لا يحمل الناسُ أمرَها فيه على السداد.

وقال آخر: قولها وكنت نسيا منسيا، أي لم أُخلق ولم أك شيئا..

إن في هذا المشهد من دروس: تقدير بشرية الإنسان وخوفه وجزعه، ودروس اعْتِبارِ عُرْف الناس، ودروس "استثنائية" خرق العادة، ودروس قدرة الله المطلقة، ما فيه..

عندما بَشّر روحُ الله جبريل، مريمَ الطاهرة الصديقة بغلام، قالت:

{أنى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ ورحمة منا وكان أمرا مقضيا}..

إن جميع أمرنا، وما نكون فيه، إذا نظرنا إليه بعين قُدرة الله هان وذل، قال ربك: هو علي هين.

هو عليه يسير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء..

إن ربنا سبحانه يخاطب عقولنا التي امتلأت تقديرا للمادة والسبب، ويخاطب أرواحنا الظامئة:

هو على هين.

يكفي أن تسألني.

يكفي أن تطلبني.

يكفي أن تعود إلي. فأعطيك سُؤْلَك، وأرمم روحك..

في بعض ما نقل إلينا من كلام رسولنا صلى الله عليه وعلى سائر أنبياء الله: **من لم يسأل الله، يغضبْ عليه.**

الدعاء مخُ العبادة. الدعاء هو العبادة.

ضع همومك المعنوية والمادية بين يدي إلهك تخاطبه وتناجيه، خاطب ربك..

تحدث إليه بجميع اللغات وعلى كل الأحوال، تجاوز سُكْرَ المُلهيات، وعفن استغنائك بما كسبت وراكمت، تحدث إليه يُجبْك ..

ما أروع أن ندع جانبا أدوات الحجاج والإقناع، ونهرع إلى الله ندعوه ونرجوه.

ما أسعدنا إن نقبسْ من كل هذه الرحلة، قبس دعاء الله والتضرع إلى الله ورجاء الله والأنين بين يدي الله..

لا أشك أن الله يجيب..

جزعت مريم وتمنت أن لم تكن، ف{نَادَاهَا مِن تَحْتِهَا}

(مريم: 24)

قيل إن المنادي جبريلُ عليه السلام، وقيل ابنُها عيسى عليه السلام: {أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا}

(مريم:24)؛ أي جعل تحتك نهرًا جاريًا..

مشهد تتأكد فيه قدرة الله: هو على هين..

إنه عنوان قصة مريم عليها السلام، وعنوان قصة ابنها المسيح عيسى عليه السلام، وقد كانت أول الأمر عنوان قصة أبينا آدم عليه السلام وأمنا حواء عليها السلام.

إننا جميعا بعضُ أثر : هو على هين.

نحن أثرُ قُدرة الله، وما لنا من "قُدرة" فنِسبية مُقيّدة بما سخّر الله، ثم نغفل عن المطلق ونتعلق بالنسبي؟

ما أوضح صورة قدرة الله المطلقة، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن.. فيكون..

يُعلِّمنا ربنا تبارك وتعالى في المشهد الموالي درسا عظيما يصل به قدرتنا النسبية وجُهدَنا المحدودَ بِقُدرتِه المطلقة.

قال منادي مريم عليها السلام: {وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا} (مريم: 25 - 26).

هُزِّي ..

إن الذي لم يُعجِزه أن تأتيها إلى محرابها فاكهةُ الشتاء صيفا وفاكهةُ الصيف شتاءً، ولم يُعجِزْهُ أن تلد من غير اتصال ببشر، ولم يُعجِزه أن ينطق ابنُها في مهده..

يأمُرُها الآن أن تهُزّ بجذعِ النخلة لتُساقط عليها الرُّطَب..

يعلمنا الله تبارك وتعالى ضرورة الأسباب، حتى لا نجمع أيدينا من معترك الهزِّ، معترك الفعل وسُنّةِ التسبب، فننتظر المعجزات الخارقاتِ سُننَ الله في أرضه وحكمتَه في خلقه، وقانونه في السبب والأثر.

وما السبب سوى هزٍّ بسيط، خفيف، وإلا فإن حقيقة الفعل من الله، والقُدرةَ المطلقةَ له سبحانه.

إن وافقت قُدرتُنا النسبيةُ قُدرتَه سبحانه، تصير قُدرتنا من قُدرته، وفعلُنا به، وبطشُنا به، وسَيرُنا به، وحديثُنا به، وسكوتنا به..

لا مانع لما يُعطي ولا مُعطي لما يمنع..

هُزِّي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً..

قال بعض علمائنا:

كان جذعا نخرا، فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخْضَرّ فصار بَلَحًا ثم احْمرّ فصار زهوا، ثم رطبا، كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطبُ يقع بين يديها..

إن الرزق وإن كان محتوما، كُلِّفَ ابنُ آدم بالسعي إليه، واقترافِ الأسباب لتحصيله.

ولا تقدح الأسبابُ في التوكل..

لا يوجدُ أعظمُ على المؤمنةِ العفيفةِ من اتِّهامِها في عِرْضِها..

ولا يوجد أعظمُ ولا أشدُّ وقعا على القلب من البُهتان يُرمى على الغافل ولم يرتكب إثما، ولذلك حرم الله الغَيْبة بله البهتان، وهي وإن كانت أقل بكثير من درجته، مظنته ومُقدِّمتُه..

{فأتت به قومها تحمله. قالوا يا مريمُ لقد جئت شيئا فَرِيّاً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أمك بغيا} (مريم:27)

قال بعض علمائنا: لما ولدتهُ ذهب الشيطانُ فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتدّون، فلما رأوا معها الولدَ الذي ولدته، قالوا لها لقد جئت بأمر عجيب وأحدثت حدثا عظيما..

وانظروا إلى أمر الشيطان عدوِّنا نحن بني آدم، كيف يكيد لنا على الدوام. يترصد زلاتنا وحسناتنا، ويمشي بيننا نحن الإخوة بالغيبة والنميمة والبهتان، يوسوسُ لا يَكَل..

يا أخت هارون..

كان بنو إسرائيل يُسمُّون الصالحين فيهم بأسماء الأنبياء، وكان لهم من الصالحين رجلٌ يُدعى هارون، وحيث كانت من أهل الصّلاح فقد دعيت أختَ هارون، أي مثيلته ..

لما كانت التهمةُ ثقيلةً، والفِريةُ عظيمةً فقد احتاجت إلى بُرهان أكبر :

نَطق الصّبِيُّ في مهده ..

رضيعٌ يتكلمُ:

{قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا} (مريم:30)..

عندما قابلوها بالتُّهمة، عيِيَ لسانُها عن النطق، وأي كلام يمكن أن يقال في مثل هذا الموقف.. لا شكّ أن نجواها كل لحظة كانت إلى الله.

أي كلام يقنع الثائرين الغاضبين، ينفخ الشيطان في قلوبهم وعقولهم.

لقد نذرت للرحمن صوما.

{فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ}

ازداد غضبهم وقال بعضهم، إن زِناها أهونُ علينا من هذا الاستهزاء..

{قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا} ؟؟ (مريم:29)

حينها نطق سيدنا عيسى عليه السلام وهو صبي في مهده: {قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا} (مريم: 28 – 33).

إن أول ما أعلنه عيسى عليه السلام، عبوديّتُه لله ..

أوّلُ ما أعلنه، حفاظُه على العهد، أن يكون لله عبدا..

قبل أن يذكر ما أكرمه الله به، وما أكرمهم الله به ببعثه: آتاه الكتاب.

والكتب من الله نورٌ وهدى.

دستورُ خلفاء ودليلُ عودة إلى الوطن..

جعلني نبيا، ومباركا ..

وجئتُكم بالعبادات المُطهِّرة والمقربة إلى الله، الصلاة والزكاة..

وجئتُ بالأخلاق العالية والمعاملة الحسنة المُثلى، بَرّا بوالدتي..

ولست جبارا.

بل أمشي في الناس بالرفق والرحمة ..

والسلام علي ومن حولي.

رسالتي السلام، حياتي سلام، وموتي سلام وبعثي سلام ..

عاش عيسى وأمُّه عليهما السلام في منطقة هيأها الله لهما كرامةً منه وعناية ولُطفًا، ذات مكان مُرتفِع و ماء جارٍ {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ} (المؤمنون: 50).

أيّده الله بآيات باهرة، ومعجزات ظاهرة.

كان يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله.

وكان يمسح على الأعمى فيعود إليه بصره.

ويمسح على الأبرص فيشفيه.

وكان يحيي الموتى، وينبئ الناس بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

كل ذلك بإذن الله .

وطلب الحواريون من رسول الله عيسى عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء ليأكلوا منها، ولتطمئن قلوبُهم بالإيمان، فدعا ربّه، فأنزل عليه المائدة التي طلب.

لقد كان من أثر "الغفلة" التي طالت كثيرا من بني آدم أن حرّفوا كلام الله ..

إن وسوسة الشيطان التي أوحت للبعض أن يغضبوا عند رؤية مريم القانتة تحمل صبيا، وألقت عليها الشُّبهات والافتراءات، هي نفسُها التي أوحت لآخرين، وقد ظهر أمرُ عبدِ الله ورسوله المؤيدِ بالمعجزات، أنه ولدُ الله. و {ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه.إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} (مريم:35)

ما ينبغي ولا يليق، بل هو فِطْرة، من الأمور المستحيلة. يكفي أن نمسح عنها غبارها وندعَها تتأمل وتقودنا للحقيقة. تنَزّهَ وتَقَدّس خالقُنا عن الولد، لأن الولدَ إنما يتخذه الفانون للامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة،

والله تعالى سبحانه، هو الباقي بقاء أبديا، القوي القادر الذي لا يُعجزه شيء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون..

{إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم. خلقه من تراب. ثم قال له كن فيكون. الحق من ربك. فلا تكن من الممترين} (آل عمران:59-60) لاحظوا كيف رُبط السابق باللاحق، مثل عيسى كمثل آدم..

وقدرةُ الله المطلقةُ الثابتُ الوحيد، كن .. فيكون.

ولقد كان من إرادة الله المطلقة أن يكف بني إسرائيل عن إذاية مصطفاه عيسى عليه السلام حين أرادوا قتله، وألقى شبهه على من دل على مكانه ثم رفعه إليه.

من سنن الله الماضية في خلقه أن يبعث لهم من يذكرهم بالعهد والميثاق ويزكيهم ويمسح عنهم الغبار المتراكم على الفطرة، ويعلمهم ويعرفهم ربهم.

غير أن كثيرا من بني آدم غووا وضلوا، ونسوا العهدَ ألا يعبدوا الشيطان ويتبعوه، فكذّبوا الرسلَ وتحدّوهم وأهانوهم ووصموهم بالكذب والبهتان، والسحر..

كُذِّب نوح، وكُذِّب إبراهيم، وكُذِّب موسى ..

وكَذّبَ عيسى أكثرُ بني إسرائيل، وما آمن معه إلا قليل:{فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: 52).

ماذا بعد كل هذه الجولة في تاريخ بني آدم ؟

إن العهدَ الذي أخذه الله علينا يوم خلق أبانا آدم وأخرجنا من صلبه وخاطبنا سبحانه وتعرف إلينا وعرفناه، وألزمنا بعبادته وتقواه، حصنُه وحصنُ الفطرة التي فطر الله الناس عليها، أن نكون أنصارا لله.

كيف أكون لله ناصرا؟

أنصرُ الله في نفسي.. أفتح للروح نوافذ بل أبواب الانعتاق من كماشات الظلام وأمسح عنها غبار الغفلات والمعاصي، لتتطلع إلى أصلها، وأصلُها نفخة علوية ..

أنصر الله في محيطي..

في أبنائي وذريتي، اعتناء بأرواحهم أن تُكسر وبفطرهم أن تُدنّس.

إن من أقسى الاغتيالات وأشدِّها وحشية، أن تُغتال الرُّوحُ البريئةُ الطّاهرةُ وقد وُلدت حديثةَ العهد بالفطرة والميثاق. تُترَكُ فريسةً لسياط الشيطان وأدواته المخربة للعقول، المدمرة للأرواح، الصارفة عن طريق الهدى..

أنصر الله في زوجي، أن يكون رفيقَ رحلة وتكون رفيقةَ درب الحياة، نعيشُها بِحُبٍّ وسلام وتراحم ومودة وتعاون، نعيشها معا نستجيب لاستحقاقاتها لا نهرب من المُعترك، وعيونُنا على الآخرة، نلتقي فيها لننال الجزاء ونعيش الحياة الأبدية ناظرين إلى ربنا مجالسين أنبياءه ومصطفيه من خلقه ..

أنصر الله في والديّ، الله الله في الوالدين، بِرًّا بهما وخدمةً ومحبّة، إنّ من أشدِّ الأنانيات فَتْكًا بالرُّوح،

أنانيةُ المنفرد بهمومِه، القاطعِ صلتَه بوالديه، كأن قد جاء من عدم..

لقد كان مِمّا ذكره عيسى عليه السلام من صفات في لحظة إعجاز، لحظةِ نطقه صبيا في المهد، قوله:

{وَبَرًّا بِوَالِدَتِي}..

البِرُّ خُلُقٌ ينعكس على الرُّوح والحياة كلِّها نورا وهدى وتوفيقا ..

أنصر الله بالدلالة عليه..

أدل على الله بحالي.. يرى الناس من أخلاقي ومعاملاتي الحسنة ما يحْفرُ في القلب والروح خيرا، يغرس غرسا، ويسقي حرثا..

أدل على الله بمقالي..

أدل على الله بتذكير جميع أخواتي وإخواني في الإنسانية بعهدنا الأول مع الله، ومسيرتنا إليه، وإقبالنا عليه، وأُشَوِّقهُم إلى موطننا الأول..

السلام عليكم أخواتي وإخوتي، أنتم الذين صَحِبْتُمونِي في هذه الرحلة، رحلةِ بَوْحٍ ومحبة، رحلةِ صفاءٍ وتداعٍ، أعتذر عما كان فيها من خطأ أو زلل، وأرجو أن تكون أرواحُنا قد أُتيح لها اللِّقاءُ في عوالمها، والاستئناس والمناجاة.

أعود لأؤكد على ضرورة أن نتحدّث إلى الله خالقِنا وبارئِنا بكل لسان وعلى كلِّ حال.
لِنُطلقْ ألسنتَنا بالثناء عليه وسؤاله، لنسْألْه، لنطْرحْ بين يديه همومنا وأسئلتنا..

لا شك أنه يجيبُنا إن سألْنا، ويتعرّفْ إلينا كيف يشاء ومتى يريد.

السلام على جبريل وميكائيل وإسرافيل وملكَ الموت وعلى الحفظة والكتبة وسائر ملائكة الله..

السلام على سادتنا آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، صلى الله عليهم أجمعين وسلم تسليما.

السلام على سائر إخوانهم من الأنبياء والمرسلين، وعلى من آمن بهم ونصرهم وصدقهم.

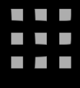
السلام على أحباب الله في كل زمان ومكان.

السلام على كاتيا (Catia)، وجوزي (Josey)، وخوسيه (José)، وألبير (Albert)..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الخضر حمادي

صبيحة الإثنين 02 يناير 2023





الخضر حمادي

باحث في قضايا العمل الإنساني والأخلاق

رئيس أكاديمية منار www.manaracademy.org

لا شك أن جميع هذه اللقاءات لم تقع اعتباطا..

نحن رسائلُ لبعضنا، وإن الكون كله وجميع ما فيه من مخلوقات يخاطبنا بإشارات في كل لحظة، علِمها من علمها، وغفل عنها من غفل، ولذلك حرصت أن أستأنف الكلامَ في الموضوع الذي بدأته مع كاتيا (Catia)، وأن أتفاعل مع بعض ما سمعته من جوزي (Josey)، وأعبر عما في خاطري وفي قلبي من أثر هذه المواقف التي ذكرتها سابقا.

لم أجد مناسبة أعظم ولا أهم من رأس السنة الميلادية، لأخاطب كل هؤلاء وغيرهم ممن يقف على رسالتي هذه، في ظلال الاحتفاء بامرأة عظيمة هي عندنا سيدة نساء العالمين..

مريم عليها السلام.

لأجل ذلك أكتب اليوم ..

لم يتيسر نشر الرسالة وقت كتابتها ..

وإن لكل زمن بركته ولكل عمل وقته، وما من شيء إلا بإذن الله ومشيئته وكل شيء عنده بمقدار.

الرسالة اليوم غزة، وهي المبتدأ والخبر.

في ظلها وتحت ظلال زيتونها وسيوفها، هدمها وأكفانها.. تحت ظلال معانيها التي تنحتها نحتا، تفهم هذه الرسالة فهما صحيحا، وتقرأ قراءة عميقة..

غزة تنحت المعاني في القلوب نحت الخبير الصادق المصدق المؤيد بالله. ودعني من الخطب الركيكة لفظا الباردة معنى الصادّة عن طريق الحق.

السلام عليك يا مريم .

السلام عليك يا غزة.



ISBN 978-9923-44-387-3